"دور المصادر العربية للعصر الوسيط في كتابة تاريخ الجزائر القديم "

د. بختة مقرانطة

جامعة معسكر، فرع آثار
Centre Camille Jullian, UMR 6573
(Université de Provence - CNRS)

الملخص :

التاريخ له وجوده القائم بذاته، وهو بطبيعة الحال أوسع مجالا وأبعد مدى من التاريخ المكتوب والآثار المادية التي تمثله، ولكن من منطلق أن النظر إلى أحوال الماضي، يندرج ضمن الرؤية الواعية لفهم حقائق الحاضر والمحافظة على الذاكرة الجماعية نتقدم بهذا المقال الذي يهدف إلى الكشف عن الصورة التي تحتفظ بها "المصادر العربية" للعصر الوسيط (تاريخية وجغرافية) عن تاريخ الجزائر القديم؛ وتوضيح ديناميكية التواصل الحضاري لدى الكتاب المسلمين أثناء العصر الوسيط.

الكلمات المفتاحية :

المصادر العربية، التاريخ القديم، المعالم الأثرية، موريطانيا القيصرية، موريطانيا السطايفية، نوميديا.

مقدمة:

تعد الدراسات الأكاديمية التي تهتم بالفترة الانتقالية بين العصر القديم والوسيط وبوجه الخصوص الجزائر موضوعا لا يزال في طي النسيان، نظرا لقلة الدراسات المصدرية التي تتطرق إلى هذه الحقبة الزمنية الهامة، ولإزالة الصمت وسد الثغرة الموجودة بين العصرين، توجهت الأنظار نحو استنطاق "المصادر العربية" للعصر الوسيط، ومعالجة النصوص التي تحاكي الطابع التاريخي لبلاد المغرب القديم.

وبناء على أهمية الحقل التاريخي الانتقالي بوصفه تخصصا ذا مكانة خاصة لدى الباحثين الأكاديميين، نحاول من خلال هذه الدراسة أن نضع تصورات للطرح بشكل منفتح ينطلق من إحصائيات قاعدية للمصادر الوسيطية الإسلامية- تتعدى ثلاثون(30) "مصدرا"- التي اهتم مؤرخوها وجغرافيوها بتاريخ الجزائر، وذلك رغبة في تشكيل معرفة كلية محلية لتاريخ الجزائر القديم، أو بالأحرى قراءة ما فيها من إنتاج تاريخي لماضي الجزائر القديم. وستقتصر هذه الدراسة على نماذج من المعرفة الجغرافية دون التاريخية، نظرا لغزارة المادة الأثرية التي تؤرخ للجزائر القديمة.

في اتجاه تحليل الإطار الكرونولوجي للجزائر في العصر القديم من خلال استقراء "المصادر"، نجد أنها تحمل في طياتها جزءا من المعرفة التاريخية تخص الفترة الرومانية، وليس هذا فحسب؛ فمن خلال التنسيق بين هذه "المصادر" والإحصاء الخاص بالمعالم الأثرية، فإنّ عملية التأريخ لا تنحصر إطلاقا في الفترة الرومانية، ولكن تتجاوزها إلى عهود سابقة تؤرخ للممالك البربرية وصولا إلى الفترة البيزنطية. ومن هذا المنطلق ستغطي هذه الدراسة من حيث الإطار الكرونولوجي الفترة الممتدة من القرن الثاني قبل الميلاد، هو تاريخ بناء قبر مدغاسن، أقدم معلم تصفه "المصادر العربية" في التاريخ القديم حتى نهاية الفترة البيزنطية أي القرن السابع الميلادي.

أما بالنسبة للإطار الجغرافي فسيشمل "الجزائر" القديمة (موريطانيا القيصرية، السطايفية ونوميديا)، وهذا لا يعني أننا نعتمد في تحديد المجال على حدود الجزائر القديمة، بل يتعداها إلى تطبيق هذا الإطار على الجزائر الحالية. الأمر الذي سيطرح مشكلة جوهرية تتعلق بالحدود الحقيقة للجزائر، لأننا إذا اعتمدنا على المجال الذي يشمل موريطانيا القيصرية، السطايفية ونوميديا فقط، سنستبعد جزءا مهما من التراب الوطني، والذي كان تابعًا للبروقنصلية، ومن ثمة الفصل النهائي لمسألة أساسية تتعلق بإحداث نظرة شمولية للحدود الجغرافية، فضلا عن مسح شبه كامل للجزائر.

لتحقيق الهدف المتوخى من الدراسة، واحتواء الموضوع نقدم في هذا المقام لمحة موجزة عن بداية اهتمام المسلمين بتأليف المصنفات العربية التاريخية والجغرافية التي تعرضت إلى وصف بلاد المغرب. وعلى سبيل الذكر يعتبر ابن عبد الحكم أول مصدر تاريخي يتحدث بصورة مقتضبة عن الفتوحات الإسلامية بالمنطقة (ابن عبد الحكم، 1999:)، وهذه الانطلاقة قدر لها أن تتوقف إلى غاية القرن 3هـ/9م، الذي يعتبر الميلاد الحقيقي لمدرسة الجغرافيا التي وفرت مادة أكثر دقة عن بلاد المغرب.

لقد واكب القرن 3هـ/9م عصر النهضة العربية التي وضع أسسها المأمون الخليفة العباسي، وزاد الاهتمام بالجغرافيا الفلكية نتيجة للاتجاه إلى ترجمة الآثار العلمية اليونانية ولا سيما كتب بطليموس. ومن جهة أخرى فقد أثرت الفتوحات الإسلامية في هذا التحول لأنها مهدت الطريق للتبادل التجاري وللأسفار الطويلة في البر والبحر، مما سمح للرحالين والعلماء والتجار بمعاينة الطرق والتحقق من مواقع الأقطار والمدن بطريقة الملاحظة الشخصية. وكذلك أتاحت الأسفار وتقارير الولاة تحديد أسماء الأماكن والمدن وضبطها بدقة(Moukraenta Abed, B. 2013: 1, 51-59) . وكلها عوامل لتقدم الجغرافيا ومعرفة البلدان، فضلا عن تطور الكتابات التاريخية والجغرافية عن العالم كله، وبالخصوص عن العالم الإسلامي وفي مقدمته بلاد المغرب الذي أسهبت "المصادر" الجغرافية المتأخرة في وصفه مثل كتاب" وصف إفريقيا" لحسن الوزان.

1- إحصاء خاص بعدد المقاطع الواردة في "المصادر العربية"

في حين أنّ هذه الدراسة تقوم على استغلال المادة التاريخية التي صرحت بها "المصادر" التاريخية والجغرافية (البلاذري، 1956؛ الرقيق القيرواني، 1990؛ الصنهاجي، 1984؛ أبو زكريا، 1984؛ ابن مرزوق التلمساني، 1981؛ عبد الرحمن بن خلدون، 1999؛ التنسي، 1985؛ ابن الفقيه الهمداني، 1885؛ الإصطخري، 1927. وسنذكر باقي المصادر في الهوامش اللاحقة)، طبقنا عليها منهجية علمية إحصائية تهتم بجردها

انطلاقا من المعطيات النصية التي تناولتها في الوصف والتحليل حول تاريخ "الجزائر" القديم، وقمنا بتصنيفها بين مقاطعتي موريطانيا ونوميديا. كما هو موضح في الجدولين التاليين:

الجدول رقم 1: خاص بعدد المقاطع عند الجغرافيين والمؤرخين

المقاطعة / المصدر / عدد المقاطع	مقاطعة موريطانيا	مقاطعة نوميديا	المجموع
"المصادر" الجغرافية	357	174	531
"المصادر" التاريخية	24	16	40

1- تمثيل لعدد المقاطع في "المصادر العربية" التاريخية والجغرافية

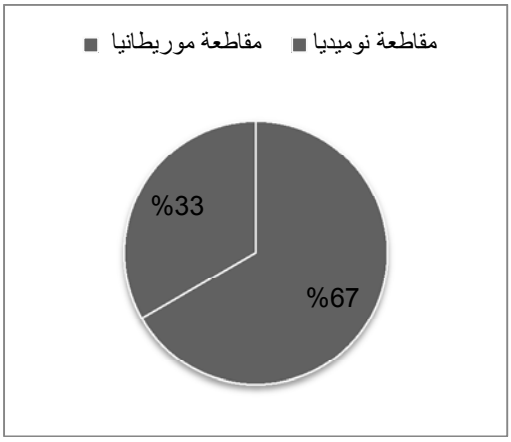

الجدول رقم 2: خاص بعدد المقاطع على حسب المعلومات التي توردها لنا "المصادر" الجغرافية والتاريخية

المقاطعة / المجال	مقاطعة موريطانيا	مقاطعة نوميديا	المجموع

عدد المقاطع			
حول التاريخ القديم	192	77	269
الأسطورة	10	10	20
السياسي	317	114	431
الاقتصادي	207	129	336
الاجتماعي	126	56	182
الجغرافي	447	121	568
الموانئ	68	5	73
المسافات	466	73	539
مقارنة	18	8	26

- **تمثيل لعدد المقاطع حسب المجالات في "المصادر العربية"التاريخية والجغرافية**

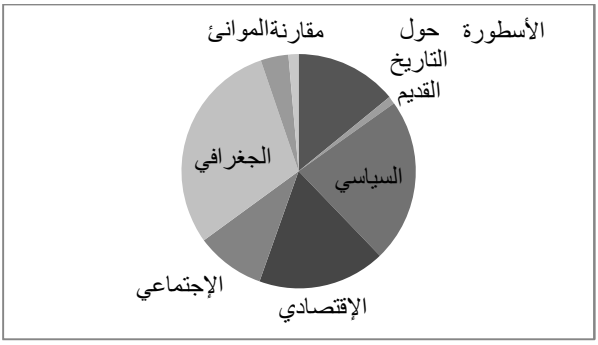

من خلال الجدولين السابقين نلاحظ أن "المصادر العربية" الجغرافية منها والتاريخية اهتمت بوصف مقاطعة موريطانيا بمجموع 381 مقطع مقابل

190 مقطع لمقاطعة نوميديا (من مجموع 571 مقطع) (Moukraenta Abed, B. 2013: 1, 202-568 ; 2, 571-780.)

أما بالنسبة لمختلف المجالات فقد احتل التاريخ القديم في "المصادر العربية" الجغرافية منها والتاريخية المرتبة الرابعة بعد الجانب الجغرافي، السياسي والاقتصادي، وهو ترتيب منطقي يواكب الأهداف الأساسية لكتابات العصر الوسيط آلا وهي التعريف بالمنطقة.

تكشف لنا العملية الإحصائية عن أهمية النصوص التي تتعلق بتاريخ الجزائر القديمة ضمن "المصادر العربية" الوسيطية، والسبب الكامن وراء ذلك هو إطلاع الجغرافيين على الكتب القديمة أولا ومحاولة دمجها مع الواقع من حيث الالتزام بالتسلسل الكرونولوجي لتاريخ المنطقة، وثانيا عن المعاينة الشخصية للموقع الجغرافي من مختلف النواحي منها العمرانية، والاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية خاصة في كتب التاريخ. وفي هذا الصدد سوف نعرج نحو دقائق الموضوع محاولين تحليل بعض جوانب تاريخ الجزائر القديم من مختلف الجوانب حسب ما تضمنته "المصادر العربية" التي تناولناها بالدراسة.

2- إحصاء المعالم الأثرية الخاصة بمقاطعتي موريطانيا ونوميديا الواردة في "المصادر العربية"

تمثل إشكالية المعالم العمرانية في الجزائر القديمة إحدى اهتمامات "المصادر العربية" تاريخية أو جغرافية والتي تختص بمعالجة الأمكنة، وبنفس العبارات يمكن اعتبارها شاهدا على التاريخ المتنوع للمدن التي تعرضت إلى تعاقب حضارات مختلفة منذ القدم؛ فمنها ما يرجع إلى عهد الممالك البربرية، ويعود أغلبها إلى الفترة الرومانية والبيزنطية؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر معظم الحصون الواردة في "المصادر" ترجع إلى الفترة البيزنطية، لقد درسنا هذه المعالم الأثرية القديمة بشكل مفصل في كتابنا (Moukraenta Abed, B. 2013: 3, 1650-1654, 1666-1670, 1679, 1699, 1725-1730, 1827-1832, 1862-1866, 1880-1884, 1898-1900 ; 4, 1920-1921.). ونخص بالذكر "المصادر التاريخية" (البلاذري، 1956: 319 ؛

الرقيق القيرواني، 1990: 11- 12 ؛ الصنهاجي، 1984: 42- 44 ؛ عبد الرحمن بن خلدون، 1980: 6، 27- 28؛ التنسي، 1985: 125- 36 ؛...) التي اقتصرت في غالب الأحيان على الجانب السياسي للمدينة وأهملت الجانب العمراني والأثري بها ، ويعود ذلك لطبيعة المؤلف التاريخي الذي دائما يتجنب الطابع الحضاري. وقد تضاربت بذلك الجغرافية الوصفية للمدن؛ فمن "المصادر" ما يورد أصل المدينة القديمة دون التفصيل في المعالم الأثرية ، وهذا ما يطغى عليه الطابع العام والتقليدي، وصفة الاختصار دون التوغل في التراث الجغرافي. في حين أن بعض "المصادر" سواء كانت متأخرة أو متقدمة لأن التأليف تواصل؛ فإنها تتعدى وصف المدينة نفسها من الجانب العمراني، كما هو الحال بالنسبة لمدن موريطانيا القيصرية (ابن حوقل، (د.ط)، 85- 86، 88- 89؛ البكري، 1965: 54، 60- 61، 65، 75- 76، 81، 143؛ الإدريسي، 1983: 106، 110- 111، 125؛ كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، 1985: 167؛ إبن الأثير، 1851- 1871: 10، 580- 581؛ ياقوت الحموي، 1984، 2، 904؛ الدمشقي، 1866: 237؛ القزويني، (د.ط): 169؛ الواطواط، 1993: 45، 49، 50، 51؛ أبو الفدا، 1840: 124، 139؛عبد المنعم الحميري، 1975: 138، 184- 185، 223، 597؛ عبد المؤمن بن عبد الحق، 1992: 1، 476؛ الحسن الوزان، 1983: 2؛ 11، 14،16، 25، 30، 32، 35، 37،38، 42، 51، 52) ، والتي تضم كل من:أرشقول، أشير، بنو واريفن، تابحريت، تمندفوست، تاهرت/ تقدمت، تسّلة، تلمسان، تنس، تيكلات، جزائر بنو مزغنة، جيجل، الخضراء، الرمانة، سطيف، شرشال، الغدير، القل، المدية، مستغانم، مليانة، هاز، هنين، وهران. والشأن نفسه بالنسبة لمدن مقاطعة نوميديا (اليعقوبي، 1892: 350؛ المقدسي، 1906: 189؛ ابن حوقل: 86؛ البكري، 1965: 50، 52، 54، 60، 63؛ الإدريسي، 1983: 158؛ كتاب الاستبصار، 1985: 166؛ الوطواط، 1993: 51، 52؛ أبو الفدا، 1840: 140- 141؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 20،

146، 558؛ القلقشندي، 1987: 5؛ 101؛ الحسن الوزان، 1983: 2؛ 61، 135- 136، 138، 140) التي تضم: أذنة، باغاية، بسكرة، بلزمة، بنطيوس، بونة، تبسة، تقرت، تهوذا، تيجس، تيفاش، طبنة، طولقة، قسنطينة، مجانة، مسكيانة، ورقلة.

وجدير بالتنويه أن بعض المعطيات الأثرية التي تشمل عليها "المصادر العربية" يمكن أن نقسمها إلى صنفين: الأول عام والثاني خاص. فالأول يقصد به تلك الأوصاف التي تحمل معلومات ضئيلة القيمة وقليلة المادة وتتخذ طابع الشمولية والعمومية في تحديد نوع وصنف المعلم الأثري الخاص بالمدن القديمة. ومن بين العبارات التي صادفتنا في التحليل نذكر منها : "... يوجد بالمنطقة أو بجوار المدينة أثار عظيمة، ..."، " أثار عظيمة للأول باقية يَحَارُ من دخل فيها لكثرة عجائبها "، " مدينة قديمة أزلية فيها أثار كثيرة "، "كانت مدينة قديمة فيها أثار عجيبة"، " مدينة أزلية كبيرة فيها أثار كثيرة للأول ". وهذه التعابير شملت المدن التالية من مقاطعة موريطانيا، وهي: أرزاو، أرشقول، أشير، بجاية، برشك، تاسقدة(سكيكدة)، تدلس، تلمسان، جزائر بنو مزغنة، جيجل، الخضراء، شرشال، شلف، فكان، قصر الفلوس، القل، القلعة، مازونة، مرسى الدجاج، مليانة، ندرومة، وهران بالنسبة لمقاطعة موريطانيا. وشمل هذا الأمر مدن مقاطعة نوميديا المتمثلة في: أذنة، باديس، باغاية، بونة، تبسة، تيفاش، قسنطينة، مجانة، ميلة (ابن حوقل، 78؛ البكري، 1965: 49، 53، 59، 61، 66، 70، 76- 77، 82- 83؛ كتاب الإستبصار، 1985: 127، 131، 132، 133، 134، 135، 128- 130، 162- 163، 165- 166، 170، 171، 175- 177؛ ياقوت الحموي، 1984: 1؛ 823 ، ج. 4، 639؛ العبدري، (د. ط): 134؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 75، 80- 81، 115، 129- 130، 132، 135، 146، 163، 340، 343، 440- 441، 476، 480- 481، 547؛ عبد المؤمن بن عبد الحق، 1992: 1؛ 343،

3؛ 1345؛ يحي بن خلدون، 1980: 85- 86، 90- 92 ؛ الحسن الوزان، 1983: 2؛ 13- 14، 32- 33، 36، 55- 60).

وبالموازاة، إذا قمنا بمقاربة أثرية للحفريات، والتحقق من صدق النصوص على الواقع، نجد أن تقارير الحفريات التي أجريت على المدن الجزائرية القديمة قد أسفرت عن وجود بعضها، وعن اندثار البعض الأخر، كما هو الشأن لمواقع : هنين، مستغانم، المدية، الغدير، مازونة وهاز. وهنا تبث لدينا أهمية "المصادر العربية" في الحفاظ على ما تبقى من ذاكرة المعالم القديمة، وهي في الواقع معلومات أصيلة ومفيدة في توجيه الدراسات الخاصة بالحفريات الأثرية.

أما الصنف الثاني من "المصادر العربية"، فقد تصاعدت فيه قضية وصف المشاهد العمرانية سواء بالمدينة أو الريف، وتميزت في مجملها بالدقة في وصف الأماكن، والتمحيص للمعلم الأثري نظرأ لوجود معاينة قريبة من الموقع وتبيان صفاته، ومن جهة أخرى فانّ هذه "المصادر" تحمل في طياتها طابع الحضارة في نقل مشاهداته للآثار والمعالم من الحصون، والمراصد، والأسوار والقصور التي وجدت بموريطانيا ونوميديا (القاضي النعمان، 1986: 173- 177؛ ابن حوقل،84، 85، 86، 87، 91؛ البكري، 1965: 49، 50- 51، 53، 63، 66- 69، 72- 73،76، 79، 80، 144- 146؛ الإدريسي، 1983: 104- 105، 110، 127، 159؛ كتاب الاستبصار، 1985: 126، 128، 134، 162- 163، 166، 172، 174، 178؛ ياقوت الحموي، 1984: 1؛ 813- 816؛ القزويني، 208- 209؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 58 ،103، 129- 130، 126، 132، 142- 143، 146، 318؛ عبد المؤمن بن عبد الحق، 1992: 1؛ 251؛ القلقشندي، 1987: 5؛ 104؛ الحسن الوزان، 1983: 2؛ 34- 35، 40- 42، 50- 51، 52- 53، 55- 65) بمدن : بجاية، تاهرت(تقدمت)، تنس، جيجل، سطيف، شرشال، مرسى الخرز، مليانة،

ندرومة، واسلن، دار ملول، باغاية، بلزمة، تبسة، تهوذا، تيجس، تيفاش، طبنة، قسنطينة، مسكيانة، ميلة، نقاوس.

وفي هذا الصدد لا تعوزنا التفاصيل عن ذكر بعض النماذج، فهذا القاضي النعمان يذكر الحصن الأولي لطبنة قائلا "... فزحف إليهم الأولياء من كل جانب، وقدّموا إليهم دبابة، فنقبوا برجا من أبرج السور، فسقط، وحمل الأولياء عليه، هرب جميع العسكر والمقاتلة والمقدمين، فدخلوا حصنا أوليا مبنيا بالحجارة منيعا"(القاضي النعمان، 1986: 177) ، ويصف الإدريسي حصن بلزمة بقوله : ".... بناؤه الحجارة الكبار القديمة وبذكر أهل تلك الناحية أنه من أيام السّيد المسيح"(الإدريسي، 1983: 127) ، وبالمثل يورد صاحب كتاب الإستبصار عن أسوار تبسة وطبنة ما يلي: "سور من حجر جليل، متقن العمل كأنما فرغ منه بالأمس" (كتاب الاستبصار 1985: 162- 163)، وفي موضع أخر يقول"حصن قديم عليه سور من صخر جليل ضخم متقن البناء من عمل الأوائل" (كتاب الإستبصار، 1985: 172).

ولإخراج صورة متكاملة عن الآثار المورفولوجية والهندسية لماضي الجزائر في القديم، يتعين علينا الفصل بين نوعية النصوص المصدرية، والتي تشير إلى نوع المنشآت المعمارية التي تكشف عن رموز الماضي التي مازلت أثارها باقية حاليا مثل المسارح والملاعب التي تشتهر بها المدن الجزائرية. باعتبارها من المعايير التي يقاس بها ازدهار المدن، مما جعل الرومان يهتمون بوسائل اللهو والتسلية ولذلك شيدوا المسارح والملاعب. وفي هذا السياق قد تحدثت "المصادر" (البكري، 1965: 66؛ الإدريسي، 1983: 121- 123؛ كتاب الاستبصار، 1985: 132، 162- 163؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 129- 130، 163) عن دور الملاعب؛ فهذه جزائر بنو مزغنة "فيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملونة مثل الفسيفساء، فيها صور الخيل والحيوان بأحكام صناعة، وأبدع عمل" (البكري، 1965: 66؛ كتاب الاستبصار، 1985: 132؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 163)، وكان

بتبسة "دار ملعب قد تهدم أكثره، أغرب ما يكون من البناء" (كتاب الاستبصار، 1985: 162- 163؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 129- 130) ، ونجد بقسنطينة "... دار ملعب من بناء الروم شبيه بملعب ثرمة من بلاد صقلية" (الإدريسي، 1983: 121- 123).

وإذا قمنا بمقاربة وصفية مع المدن الإيطالية وجزرها من خلال كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الذي عاش فترة من حياته بروما (Moukraenta Abed, B. 2013: 1, 147-151)، نجد انه يرجع بعض المعالم الأثرية إلى أصولها، نعني بذلك إلى العهد القديم وليس إلى العهد الإسلامي وهي ميزة دقيقة لهذا الرحالة في تأكيد هوية الآثار. ومن تلك القرائن ما ذكره عن قوس نصر قسنطينة بقوله:"على بعد ميل تقريباً يرى قوس نصر شبيه بالذي يوجد في روما" (الحسن الوزان، 1983: 2؛ 60) ، أو عند حديثه عن الطريق الرابط بين تاسقدة(سكيكدة) وقسنطينة : "يمتد بين هذا الميناء وقسنطينة طريق مبلّط بحجارة سوداء على نحو ما يشاهد في إيطاليا من بعض الطرق المسمّاة بالطرق الرومانية" (الحسن الوزان، 1983: 2؛ 54- 55).

تقتضي معايير الهندسة المدنية القديمة بتخصيص فضاءات للعبادة كالمعابد والكنائس والقبور أحد الرموز المقدسة لدى الحضارات القديمة. فقد صرحت مصادر الدراسة بوجود العمارة الدينية في كل من تمندفوست، تاهرت(قدمت) (الزهري، 1968: 21؛ 194؛ ابن سعيد المغربي، 1982: 11؛ الحسن الوزان، 1983: 2؛ 40- 41؛ الإدريسي، 1983: 121- 123؛ كتاب الاستبصار، 1985: 132، 162- 163، 170؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 60، 129- 130،340) تبسة، قسنطينة (الإدريسي، 1983: 121- 123؛ كتاب الإستبصار، 1985: 132، 162- 163، 170؛ عبد المنعم الحميري، 1975 60، 340، 129- 130)، أشير وشرشال (كتاب الإستبصار، 1985: 132، 170؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 60، 340) ، وتلمسان وجزائر بنو مزغنة (البكري، 1965: 66،

76- 77؛ كتاب الإستبصار، 1985: 132؛ عبد المنعم الحميري ، 1975: 135، 163؛ يحي بن خلدون، 1980: 85- 86، 90- 92). ومن المقابر المشهورة ما ذكره البكري عن قبر مدغاسن قائلا: "ومن باغاية إلى مدينة فاساس وهي مدينة قديمة على نهر و في غربيها جبل شامخ و منها إلى قبر مادغوس وهو قبر مثل الجبل الضخم مبني باجر رقيق قد خرق وبني طيفانا صغارا وعقد بالرصاص وصورت فيه صور الحيوان من الأناسي وغيرهم وهو مدرّج النواحي وفي أعلاه شجرة نابتة وقد أجمع على هدمه سلف فلم يقدر على ذلك" (البكري، 1965: 50). ونضيف في وصف العمارة الدينية ما أشار إليه صاحب كتاب الاستبصار عن معبد مينرفا بتبسة بقوله: "وفيها هيكل يظن الرائي أنه كما رفع اليد عنه، ما يكاد يعرف الفرق بين أحجاره، ولو غرست الإبرة بين حجرتين من أحجاره ما وجدت منفذا. وفي داخله أقباء معقودة بعضها فوق بعض، وبيوت تحت الأرض وآزاج كثيرة لها منظر هائل. يقال إن ذلك الهيكل كان لاستنزال الروحانيات، لأن فيه أثر الدخان، و فيه صور جميع الحيوانات وصور شاذة لا يعلم ما هي" (كتاب الاستبصار، 1985: 162- 163، عبد المنعم الحميري1975: 129- 130).

ولم تغفل المصادر التاريخية ذكر هذه التفاصيل عند كل من الرقيق القيرواني وعبد الرحمن بن خلدون حول لجدار بتيارت قائلين: "...فهربوا إلى الرمال، وأقام هو على وادي ميناس، وكان هنالك ثلاثة جبال، كل منهم عليه قصر مبني بالحجر المنحوت فوجد في وجه أحد هذه القصور كتابة على حجر فسيح فأمر المنصور التراجمة بقراءته وإذا فيه: أنا سليمان السرد غوس خالف أهل هذا البلد على الملك، فبعثني إليهم ففتح الله عليهم وبنيت هذا البناء لا ذكر به" (الرقيق القيراوني، 1990: 219) ، "وزحف المنصور يريد لواته فهربوا أمامه إلى الرمال ورجع عنهم، ونزل إلى وادي ميناس ثم انصرف إلى القيروان"، وذكر ابن الرقيق : ان المنصور وقف هنالك على أثر من آثار الأقدمين بالقصور التي على الجبال الثلاثة مبنية

بالحجر المنحوث، يبدو للناظر على البعد كأنها أسنمة قبور، ورأى كتابا في حجر فسره أبو سليمان السرد غوس خالف أهل البلد على الملك فأخرجني إليهم ففتح لي عليهم وبنيت هذا البناء لا ذكر به" (عبد الرحمن بن خلدون، 1999: 1؛ 234، 2؛ 539- 540). أما عن الكنائس فان تلمسان " فيها للأول أثار قديمة وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة" (يحي بن خلدون، 1980: 85- 86، 90- 92) ، وبالمثل "كانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة بقي منها جدار مفصص كثير النقوش والصور" (البكري، 1965: 66، 76- 77؛ كتاب الإستبصار1985: 132؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 135، 163).

ومن المرافق الأساسية التي احتوت عليها المدينة، الحمامات فمعظم المدن الرومانية تحتوي على حمام واحد على الأقل، فقد نوهت "المصادر العربية" بوجودها بمدينة قسنطينة وهي "على مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة، يوجد حمّام مكّون من عين ماء ساخن يتدفّق بين أحجار ضخمة وبعيد عن عين الماء الحار، هناك عين ماء بارد، يوجد بقربها بناء من رخام شاهدت مثله في إيطاليا وفي كل بلاد أوربا" (الحسن الوزان، 1983: 2؛ 55- 60). وعثرنا على نوعين من الحمامات بمدينة أرشقول (البكري، 1965: 77- 78) ، إحداهما قديم، هذا دليل على أن الحمام القديم ظلّ مستعملا حتى العصر الوسيط، ويرجع بناء حمام ثاني إلى تزايد الطلب على هذا المرفق الحيوي، ويرتبط ذلك بطبيعة الحال بازدياد عدد سكان المدينة.

لقد كانت الحاجة الماسة للمياه بالمدن، للاستخدامات اليومية واستخدامات أخرى هي الدافع الرئيسي لإنشاء وتصميم أنظمة مائية متميزة، فمنذ العهد الروماني جلبت المياه من مسافات بعيدة إلى المدن والقرى والمزارع. وفي هذا الصدد أسفرت تقارير الحفريات الأثرية عن وجود قنوات لجر المياه تربط مناطق مختلفة بالجزائر بين وديانها وبركها. ونوهت "المصادر" (البكري، 1965: 72- 73، 76- 78؛ كتاب الإستبصار، 1985: 166، 170، 176- 177؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 26-

27، 60، 135؛ القلقشندي، 1987: 5؛ 145) عن بئر أولية بمدينة تهوذا، وعن عيون ماء وبرك تواجدت بمدن أخرى.

ونظرا لضخامة المنشات الإروائية؛ فقد أفصحت "المصادر" عن مدى تفنن القدامى في صناعة القناطر، وفي هذا الشأن يقول الإدريسي عن قنطرة قسنطينة : "وهذه القنطرة من أعجب البناءات، لأن علوها يشف عن المائة ذراع بالذراع الرشاشي، وهي من بناء الروم، قسي عليا على قسي سفلي. وعددها في سعة الوادي خمس. والماء يدخل على ثلاث منها مما يلي جانب الغرب. وهي كما وصفناها قوس على قوس. والقوس الأولى يجري بها الماء أسفل الوادي. والقوس الأخرى فوقها، وعلى ظهرها المشي والجواز إلى البرّ الثاني. وباقي القوسين اللتين من جهة المدينة، فإنما هما مفردتان على الجبل. وبين القوس والقوس أرجل تدفع مضرة الماء و مصادرته عند حمله بسيوله. وعلى رقاب الأرجل قسي فارغة كالبنات الصغار، فربما زاد الماء في بعض الأوقات عند سيله فعلا الأرجل، ومرّ في تلك الفرجان. وهي من أعجب ما رؤي من البناء" (الإدريسي، 1983: 121- 123) ، يبدو بوضوح دقة وصف القنطرة من حيث الهندسة العمرانية ومدى أهميتها في مواجهة الفيضانات. وبالمثل يسرد صاحب كتاب الاستبصار عن قناطر قصر الفلوس قائلا: " فيها ماء مجلوب على قناطر بأغرب ما يكون من البناء القديم" (كتاب الاستبصار، 1985: 133) ، وفي المنحى نفسه يشير العمري إلى "عظم القناطر المرفوعة" بشرشال (العمري، 1924: 224).

ولتزين المنشآت العمرانية المتعددة للمدينة نجد "المصادر العربية" (ابن حوقل، 78؛ البكري، 1965: 66؛ الإدريسي، 1983: 114، 121- 123؛ كتاب الاستبصار، 1985: 132، 162- 163؛ عبد المنعم الحميري، 1975: 129- 130، 163؛ الحسن الوزان، 1983: 2؛ 36، 40- 41، 63- 65) تتحدث عن الفسيفساء والنقوش والصور وأصنام من حجارة والتي كانت تمييز بنيات العصر القديم، فجمالها شدّ انتباه الجغرافيون فوصفوها، ولم يغب عنها تلك الكتابات اللاتينية على الآثار، ويظهر ذلك عند الحسن الوزان الذي قال عن الساحة العمومية للمدينة القديمة لتبسة: "وتشاهد في الساحة وفي أماكن أخرى أعمدة رخام منقوشة

فيها الكتابة اللاتينية بحروف التاج" (الحسن الوزان، 1983: 2؛ 63-65).

ومن المفيد التنبيه أنّ عملية جرد "المصادر العربية" تاريخية أو جغرافية قد أفصحت عن وجود ظاهرة التخصص، ونقصد بذلك وصف المعالم الأثرية الخاصة بالعصر القديم دون العصر الإسلامي، على الأقل من الناحية الكمية، "فالمصادر العربية" (Moukraenta Abed, B. 2013 : 2, 838-859) لنفس المدن تذكر لدينا :73 سور، 45 مسجد، 27 مدرسة، 25 حمام، 14 قلعة، 07 فنادق، 06 دور وبيوت جميلة، وأسواق.

ومن جهة أخرى، ضمن "المصادر العربية" التي اطلعنا عليها لا يوجد وصف دقيق لأي معلم من معالم العصر الوسيط ما عدى قصر اللؤلؤة ببجاية (وصفها صاحب كتاب الاستبصار)، بينما يختلف الوضع تماماً عند الحديث عن المعالم الأثرية القديمة ، ويظهر ذلك في الغالب بإطالة الوصف والتدقيق فيه، كما هو الحال بالنسبة للنماذج السابقة الذكر، وعلى سبيل الإشارة معبد تبسة، وقنطرة قسنطينة مثلا.

أما إذا أردنا الحديث عن الجانب التاريخي للعصر القديم بالنسبة للجزائر فحاله من حال بلاد المغرب عامة لم يحض باهتمام مقارنة فيما ورد عن الآثار، كما طغى الجانب الأسطوري لسرد الأحداث أو الوقائع التاريخية القديمة للمنطقة لسد نقائص الماضي البعيد التي لا يمكن كتابتها. ولا يمكننا في هذا المقام التفصيل لأنّ الحديث هنا سيطول وسنتجاوز إحدى الدراسات التي فصلت في هذه النقطة(Siraj, A. 173-240) : 1995، والتي جاءت شاملة ومستوفية للتاريخ القديم لشمال إفريقيا من خلال "المصادر العربية" التاريخية على وجه الخصوص.

نستنتج مما سبق الأهمية التي وجهتها "المصادر العربية" للجغرافية التاريخية والآثار القديمة للجزائر. حيث كان الهدف الأول للمؤرخين وللجغرافيين وصف المنطقة جغرافيا وتحديد مسالكها ومدنها، وتحديد أصولها ووصف معالمها، والمدينة بدورها لم تفصل في هذا الوصف عن ريفها وفي ذكر الأحواز القريبة أو البعيدة عنها.

ومما لا شك فيه أن "المصادر العربية" لا تمدنا بكل المعلومات الدّقيقة التي تشفي غليل الباحث، لكنها تحوي في طياتها هوية أمة معينة،

والبحث في حيثيات الماضي البعيد دليل على اهتمام مؤلفيها واحترامهم للذاكرة الجماعية للبشرية وبحرصهم على التدوين، وعلى استمرار وتواصل ذاكرة الحضارات القديمة، خاصة المحلية منها، فهي بذلك تخترق الزمن والمكان عند وصفها للمدغاسن وللجدار، والذي يفصل بينهما ثمان قرون على سبيل المثال لا الحصر.

قائمة "المصادر" والمراجع:

1- "المصادر"

إبن الأثير، (1851- 1871). الكامل في التاريخ، ليدن: مطبعة بريل.

ابن الفقيه الهمداني، (1885). البلدان، ليدن: مطبعة بريل، .

الإصطخري، (1927). مسالك الممالك، ليدن: مطبعة بريل.

ابن حوقل، (دون سنة طبع). صورة الأرض، القاهرة: دار الكتب المصرية.

ابن سعيد المغربي، (1982). كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

ابن عبد الحكم، (1999). فتوح مصر و المغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة: نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة.

ابن مرزوق التلمساني، (1981). المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تقديم محمود بوعياد، الجزائر: مكتبة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

أبو الفدا، (1840). تقويم البلدان، تحقيق رينود ودوسلان، ليدن: مطبعة بريل.

الإدريسي، (1983). كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق محمد حاج صادق، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

البكري، (1965). كتاب المسالك و الممالك، تحقيق دو سلان، باريس: ميزون- نوف.

البلاذري، (1956). كتاب فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

التنسي، (1985). تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان : مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، الجزائر: مكتبة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

الحسن الوزان، (1983). كتاب وصف إفريقيا، تحقيق محمد حجي و محمد الأخضر، الطبعة الثانية بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الدمشقي،(1866). نخبة الظهر في عجائب البر و البحر، سانت بتارس بورغ: منشورات مهران.
الرقيق القيرواني، (1990). تاريخ افريقية والمغرب، بيروت: دار الغرب.
الزهري،(1968). كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مجلة الدراسات المشرقية، المجلد 21.
الصنهاجي،(1984). أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تحقيق جلول أحمد البدوي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
أبو زكريا،(1984). كتاب سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
عبد الرحمن بن خلدون، (1999). كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر فى ايام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
عبد المنعم الحميري،(1975). كتاب الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان.
عبد المؤمن بن عبد الحق، (1992). مراصد الاضطلاع على أسماء الأماكن و البقاع، علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل.
العبدري،(دون سنة طبع). الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، قسنطينة: مطبعة البعث.
العمري،(1924). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق جودفروا ديمومبين، القاهرة: دار الكتب المصرية.
القاضي النعمان،(1986). افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية.
القزويني،(دون سنة طبع). آثار البلاد و أخبار العباد، بيروت: دار صادر.
القلقشندي،(1987). الصبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت، دار الكتب العلمية.
المقدسي،(1906). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن: مطبعة بريل.
مؤلف مجهول، (1985). كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
الواطواط،(1993). مباهج الفكر و مناهج العبر، تحقيق فانين، ألمانيا: منشورات المعهد التاريخي للعلوم العربية الإسلامية.
ياقوت الحموي، (1984). معجم البلدان، بيروت: دار صادر.

يحي بن خلدون، (1980). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر: المكتبة الوطنية.

اليعقوبي، (1892). البلدان، ليدن: مطبعة بريل.

المراجع

Moukraenta, Abed B. (2013) L'Image de l'Algérie antique au travers des sources arabes du Moyen Âge, Alger.

Siraj, A. (1995). L'image de la Tingitane, L'historiographie arabe médiévale et l'antiquité nord-africaine, Rome.